الوظيفة الحجاجية في لغة النثر التأليفي لكتب التراث الاندلسي

أ. د. علي كاظم المصلاوي
قسم اللغة العربية
كليّة التربية للعلوم الإنسانية
جامعة كربلاء

م. م .كريم ضباب مطر
قسم اللغة العربية
كليّة التربية للعلوم الإنسانية
جامعة كربلاء

الحجاج هو ظاهرة لغوية نجدها في بعض النصوص الأدبية الشعرية أو النثرية التي تكون لها إلى جانب الوظيفة الأدبية والشعرية وظائف أخرى، منها الوظيفة الإقناعية والحجاجية، ويعبر عنها بالتعجب والندبة والاستغاثة والأمر والنداء وأسماء الأفعال والروابط التداولية الحجاجيا(، ويهدف الحجاج إلى الإقناع عن طريق تعديل فكرة أو نقد أطروحة أو جلب اعتقاد أو دفع انتقاد، فقد يعلن المتكلم أمرا ويذكر آخر، يختزل فكرة ويسهب في تحليل أخرى، يسأل ويجيب، بل قد يأتي بالفكرة الواحدة على أنحاء مختلفة فيبرز في نصه سحر البيان وجمال اللغة(، وللحجاج غاية يعمل على تحقيقها، وهي تفرض على المُتلقِّي نمطًا من النتائج، بوصـ ها الواجهة الوحيدة التي يمكن للمتلقي أن يسير في ضوئه(، ويعمل الحجاج على تقديم الأدلَّة المؤدية إلى نتيجة معينة، إذ يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي نستدل بها على أنَّ اللغة لها وظيفة حجاجية(.

ومن يروم الحجاج في كلامه عليه مراعاة المقام التي تساعد على تحقيق المقدرة الإقناعية للخطاب الحجاجي، فلا بد في العملية الحجاجية من مراعاة المُتلقِّي، أو الاستحواذ على انتباهه في مرحلة أولى، ثم التأثير فيه في مرحلة ثانية، وهذا قد أجمع عا ه كلُّ الدارسين المهتمين بالحجاج وأفانينا(.

إن ثلاثة أرباع كلمات اللغة الموضوعية العادية لا نعرف معناها ودلالتها، لكننا نستعملها بشكل جيد ونعرف وجهتها الحجاجيا[؛ إذ استعملت الوظيفة الحجاجية بصورة واضحة ودقيقة، من أجل اقناع المُتلقِّي بالفكرة التي تقص د لها هذه اللغة، وأبرز الأدلة على وجود الحجاج في أي لغة هو وجود الروابط والعوامل الحجاجية التي تُعدُّ المؤشر الأساسي والبارز، وهي الدليل القاطع على أنَّ الحجاج مؤشر له في بنية اللغة نفسه[.

والروابط الحجاجية في اللغة العربية كثيرة منها: ((بل، لكن، إذن، لاسيما، حتى، لأنَّ، بما أن، إذ، إذا، الواو، الفاء، اللام، كي))، ووظيفتها هي ربط الجمل بعضها بالبعض لآخر؛ لتكوين جمل مركبة, و ((يكمن دور الروابط الحجاجية، واستثمار دلالاتها في ترتيب الحجج، ونسجها في خطاب واحد متكامل، إذ تفصّل مواضع الحجاج، بل وتقوّي كل حجة منها الحجة الأخرى، انطلاقا من أنَّه عندما يكون تحت تصرفنا عددا من المعطيات، فإننا نمتلك إمكانات هائلة، لنتمكن من الربط بينها))[، أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية ـــــ أي بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج ـــــ ولكنها تقوم بحصر الإمكانات الـ جاجية التي تكون لقول ما وتقييدها، وتضم العوامل الحجاجية أدوات مثل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما، إلا، وجلّ أدوات القصر[.

ونظرية الحجاج في اللغة تقوم على فرضية أنَّ طائفة كبيرة من ألفاظ اللغة وكلماتها وتراكيبها ليس له معنى وصفي واضح، أو ليس له ، حتوى أخباري بيِّنٌ، وعلى هذا الأساس ستكون وظيفة اللغة وظيفة حجاجية، لهذا فإنَّ الألفاظ والأقوال والعبارات التي نستعملها، وننتجها في لغتنا اليومية، لها طابع حجاجي واضح، ولها قوة حجاجية بارزة، نسعى عبرها إلى التأثير في المُتلقِّي، وإلى دفعه إلى تبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين، أو اتخاذ موقف ما من قضية من القضايا، أو إلى تغيير آرائه ومواقفه بشكل عام[٥ .

وعند التمعن والنظر إلى لغة النثر التأليفي في القرنيين محلّ الدراسة نلحظ توفرها على مجموعة من الروابط، والعوامل الحجاجية التي كان لها دورٌ كبيرٌ في إظهار الوظيفة الحجاجية

للنص النثري، فضلا عن تقويتها على المستوى الإقناعي الذي يسعى له المؤلف؛ لتوصيل فكرته أو لتغير فهم خاطئ في أذهان المُتلقِّين.

ومن الأمثلة على الوظيفة الحجاجية قول (الكلاعي) في كتابه إحكام صنعة الكلام، عندما ردّ على أحد العلماء، بعد وصفه الأندلسيين بالأنحراف، وكتبهم بالتحريف، دون فائد : **((أما الفائدة ـــ أكرمك الله ـــ فموجودة غير مفقودة، وذلك لصيانة لأنَّ جوانب الكتاب تسكن بسبب ذلك التحريف عند الطيّ، فيكون ذلك أصون له ، من الأنحناء و أحفظ لها من العفاء، وأما ما ذكرته من انحراف أهل الأندلس، فقول ليس بالصحيح، وكلام يطير مع الريح ، وإنهم أهل اتقانٍ وضبط، وفهم وضبط . . .))**[1] .

قدم الكلاعي في هذا النص حججه من أجل الدفاع عن أهل الأندلس؛ إذ كانت حججه مقسمه إلى اتِّجاهين: الأول تكفّل بالدفاع عن كتب الأندلس، وفائدة الانحراف الذي فيها، أما الآخر فتكفل بالدفاع عن أهل الأندلس وتغيير فكرة الإنحراف المغلوطة عنهم، إذ استعمل في الاتِّجاه الأول مجموعة من الروابط الحجاجية التي كان دورها ربط الحجج مع النتيجة وتقويتها، حتى تصل إلى المُتلقِّي ويتأثر بها، ومن ثم يستطيع تغيير اعتقاده الخاطئ، ومن هذه الأدوات التي جاءت قبل الحجة هي (اللام في لصيانة)، وهي نتيجة نهائية، ذكرها قبل إيراد حججه؛ لأنَّه يريد الوصول إليها بهذه الحجج؛ لذلك استعمل حجتين واحدة أقوى من الأخرى؛ إذ استعمل في الأولى (لأن)، وهي من الروابط الحجاجية التي تؤدي دوراً مهماً في إيصال الحجة في (لأنَّ جوانب الكتاب تسكن) فكانت أقوى الحجج، أما الحجة الأخرى في (فيكون ذلك أصون من الانحناء وأحفظ لها من العفاء)؛ إذ استعمل حرف (الفاء)، وهو أيضاً من الروابط الحجاجية التي تربط مجموعة من الحجج التي تصل إلى نتيجة واحدة، وهي الصيانة والحفظ، فكانت أقل قوة من الأولى، والمخطط الآتي يوضح عملية الحجاج:

النتيجة ⟵ الحجا + الحجا 2

الصيانة والفائدة ⟵ تسكن جوانب الكتاب + الصون والحفظ

أما الاتِّجاه الآخر فاستعمل فيه المؤلف أيضًا مجموعة من الروابط الحجاجية التي حققت ترابطا، بين الحجج الـ الَّة على عدم انحراف أهل الأندلس، والنتيجة المتحققة منها، فكانت الحجج جميعها تدل على نتيجة واحدة، وهي عدم صحة انحراف أهل الأندلس؛ إذ استعمل المؤلف (الواو واللام)، في(وإنَّهم لأهل اتقان وحفظ)، (وفهم وضبط)، فكانت الحجة الأولى التي وصف بها أهل الأندلس بـــ(الـ تقان والحفظ)، مساوية للحجة الثانية التي وصفهم بها بـــــ(الفهم والضبط)، فكلا الحجتين نصل بهما إلى نتيجة واحدة، وهي عدم انحراف أهل الأندلس، فالوظيفة الحجاجية في هذا النص حققت مجموعة من الإجراءات، كانت غايتها دفع المُتلقِّي إلى تبنِّي موقف معين اعتمادًا على إثباتات وحجج، طرحها المؤلف في سياق النص، من أجل تغيير النظرة السلبية التي جاءت من مواقف مسبقة إلى نظرة إيجابية.

ونلحظ مثل ذلك في قول الكلاعي عن الإيجاز: **((وأما الـ يجاز فيخاطَب به أهل الرتب العالـ ة، والهمم الـ امية، لـ نَّ الوجيز عند هذه الطائفة أنفقُ من الـ طـ ة، والإشارة لديهم أنجح من تطويل المقـ ة، وما ذاك إلا لبُعد هِممـ م، وتفسُّح خواطرهم . . .))** [2] .

نرى من خلال قراءتنا لما تقدم أن للوظيفة الحجاجية دورًا كبيرًا في هذا النص؛ إذ تضافرت الروابط، والعوامل الحجاجية، على إظهارها بصورة واضحة وفعالة، داخل لغة لمؤلف النثرية؛ إذ قدم الكلاعي النتيجة في بداية النص، وجعلها المحور الذي يدور حوله النص وهي (تفضيل الإيجاز في مخاطبة اصحاب المنزلة العالية)، وبعد ذلك بدأ بذكر حججه الدالَّة على ما ذهب إليه، مستعملا مجموعة من الروابط الحجاجية التي تربط حججه بالنتيجة، فضلا عن دورها في ترابط الحجج بعضها مع البعض الآخر، فكان أول رابط هو (لأن) التي جاءت بعدها حجة

(الوجيز أنفق عند هذه الطائفة من الإطالة)؛ إذ دلت هذه الحجة على (إن الإيجاز يستعمل بصورة كبيرة في هذه الطائفة، ومريديه كثر، ويفضلونه على الاطالة)، والرابط الثاني الو و؛ إذ ربط الحجة الثانية بالأولى في (والإشارة لديهم أنجح من تطويل المقالة)، فكانت دلالة الحجة الثانية (عند هذه الطائفة يكثر استعمال الإشارة والتلميح)، فكانت الحجتان متساويتين في القوة الحجاجية، ومن ثم جاء دور العامل الحجاجي، وهو (إلا)، في جملة (وما ذاك إ لبعد هممهم، وتفسح خواطرهم) الدالَّة على (علو همم أصحاب الإيجاز، وسعة عقولهم)، فكان له دور بارز في إظهار التعارض الدلالي، بين هذه الجملة، وحججه السابقة، إذ كانت دلالة (الإيجاز، وعدم الإطالة والإشارة والتلميح) طاغية على حججه، بينما كانت دلالة (البعد و لسعة) واضحة، في جملة العامل الحجاجي، على أنَّ هذا التعارض الدلالي - إن صح التعبير – لم يعارض النتيجة، بل كان يدعم النتيجة نفسها التي سعت إليها حجج المؤلف، في هذا النص، وهي تفضيل استعمال الإيجاز، من أهل العلم، والهمة العالية.

ومن الأمثلة على استعمال الو ظيفة الحجاجية عند (الكلاعي) أيضاً قوله: **(وإنما سمّينا هذا النوع الحالي؛ لأ ه ـ لِّي بحسن العبار ة، ولُطف ا شار ، وبدائع التَّمثيل والاستعار ة، وجاء فيه من الأسجاع والفواصل ما لم يأتِ في باب العاد ل، وربما أغفل في بعض الكلام استجلابُ ا، وأهمل في موطن من ه ا الباب استدعاؤ ا، ولكنّي إنما أنسب الكتاب إلى ما غلب عا ه، وأذكرهُ في باب ما يميل طبعه كثيرا إليه . . .)**[3] .

لقد وضَّح المؤلف في هذا النص سبب تسميته لنوع معين من الكتابة بـــ(الحالي)، وهذا التوضيح والتفسير جاء عبر تقنية الحجاج، إذ استعمل توليفة من الروابط الحجاجية التي كان دورها ربط الحجج مع بعضها، للوصول إلى نتيجة واحدة، وهي سبب التسمية، فكانت الحجة الأولى هي (لأنَّه حُلِّي بحسن العبارة)، فتحليته بحسن العبارة هي السبب الأول للتسمية؛ إذ نلحظ دور الرابط الفعال(لأنَّه)، في انَّسياب الحجة مع النتيجة وتناسق ا، ومن ثم توالت الحجج، باستعمال الرابط الواو الذي كان دوره اشراك الثاني، فيما دخل فيه الأول[4] ، كما في (ولطف

الإشارة، وبديع التمثيل والاستعارة)، إذ كانت هذه الحجج مشتركة في سياق واحد، وداخلة في دلالة واحدة وهي التحلية والتجميل للكتابة من الناحية البيانية، ومن ثم انتقل إلى حجة استعمال البديع من السجع والفواصل أيضاً، باستعمال الرابط حرف الوصل (الواو)، في (وجاء فيه من الأسجاع والفواصل)، ثم انتقل إلى استعمال العامل الحجاجي (ما)، في (ما لم يأتِ في باب العاطل)، إذ قيَّد استعمال السجع والفواصل وحصرها على هذا ا وع من الكتابة، دون الأنواع الأخرى المسماة (بالعاطل) التي تخلو من المحسنات البيانية والبديعية، ثم قيد هذا الاستعمال، بحجة عدم ورودها في بعض الكلام للغفلة، وذلك بعد استعمال العامل الحجاجي (ربما)، في (وربما أُغفل في بعض الكلام استجلابها)، وأيَّد هذه الحجة ب جة أخرى، وربطها مع ما قبلها بحرف الواو، في (وأهمل في مواطن من هذا الباب استدعاؤها)؛ إذ دلَّت على أنَّ الإهمال هو سبب عدم ورودها في بعض أبواب هذا النوع من الكلام، ومن ثم ختم المؤلف هذا السيل من الحجج، بحجة كان الرابط فيها هو (لكنّي)، في (ولكنّي إنما أنسب كتاب إلى ما غلب عليه، وأذكره في باب ما يميل طبعه كثيرا إليه) فكانت نهاية الحجج تدلُّ على أنَّ نسبة الكتابة وتسميتها تخضع إلى ما غلب عليها، وما مال الطبع إليها، وهذا يعني أنَّ الكتابة إذا كانت فيها وفرة من المحسنات البديعية والبيانية فهي كتابة جمالية، أو ما تسمَّى (الحالي)، يتبيّن من ذلك أنَّ الحجج المستعملة في هذا النص كانت على درجة واحدة من القوة والتأثير فهي لم ترق إلى مستوى البراهين المنطقية، لأنَّ وظيفة الحجاج لا تعني البرهنة على صدق اثبات أو إظهار الطابع الصحيح لاستدلال ما، من وجهة نظر منطقيا [5] ، بل ت تمد على درجة متفاوتة من الصدق، والنسبية بحسب السياق والمؤلف؛ إذ تتأثر بدرجة كبيرة بوجهات النظر.

وقد تميزت لغة الكلاعي بالحجاج، ومن ثم بالوظيفة الحجاجية؛ لأنَّه كان يعرض وجهة نظره في الأمور النقدية والبلاغية، فضلا عن معارضة الآراء لبعض النقَّاد والبلاغيين، وجَهد في تفضيل أهل الأندلس، فوضع بعض الإثباتات والحجج والبراهين؛ ليلتفت إليها المُتلقِّي ويتأثر بها، فكانت لغته في النثر التأليفي تعتمد على أسلوب الدفاع، عن أمور أدبية ذات صلة بأسلوب

الكتابة، وحدود البلاغة والبراعة، وهذا الدفاع يحتاج إلى الحجاج والاقناع لذي يتأثر فيه المُتلقِّي والسامع، ولا تكاد صفحة من صفحات كتاب (إحكام صنعة الكلام) تخلو من هذا الأسلوب[6] .

وقد وظف ابن السراج الشنتريني (د 49i ه) الحجاج في نثره التأليفي لكتابه (جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب)، كما في قوله عن معايب الشعر : **((إعلم أنْ الشعر ـــــ وإن كانت فضائله كثير ة، ومنافعه معروفة مشهورة ـــــــــــ فإنَّ غوائله مخُو ة: ومناهله بالشّرِّ محفو ة، وذلك أنَّ رديئه عورة فاضد ة، إنْ لم تس ر، ومتوسطه فضيلة واضحة لا تش ر، والجيّد م ه، لا يُنَال إلا باستغراق الاوقات ف ه، وإهمال المهمات من أج ه . .))**[7] .

لقد اعتمد المؤلف على تقنية الحجاج، والوظيفة الحجاجية في إيصال آرائه النقدية التي تقدم على أساس الأدلة والبراهين، فكانت أدلته عبارة عن حُجج، استعملها لتقوية ما ذهب إليه من آراء، في نقد الشعر وذمه، إذ تناول هذا الموضوع بصورة ترتيبية إقناعية، بتقديم الإيجابيات على السلبيات، وإسناد كل ذلك بمجموعة من الحجج، وظيفتها التأثير بالمُتلقِّي، حتى يمكنه من تغيير فكرة راسخة في ذهنه، وهي أفضلية الشعر، وخلوه من العيوب، فخاطب المؤلف في هذا النص المُتلقِّي بعبارة (إعلم)، وهي فعل أمر يدل على التنبيه، لما هو قادم ن المعلومات، وذلك لأهميتها، وهي معلومة تخص الشعر، ومحصورة ومخصوصة به، بقوله (أنَّ الشعر)، ثم جاء المؤلف بجملة اعتراضية تدل على كثرة فضائل الشعر ومنافعه، في (وإن كانت فضائله كثيرة، ومنافعه معروفة مشهورة)، لكنَّ هذه الجملة جاءت بصفتها مقدمةً للنتيجة التي ؤمن بها المؤلف، وهي كثرة غوائل الشعر المخوفة، ومناهله المحفوفة بالشر، في (فإنَّ غوائله مخوفة ومناهله بالشر محفوفة)، مؤكداً ما يؤمن به، بمجموعة من الحجج التي ربطتها مجموعة من الروابط الحجاجية، فضلا عن العوامل الحجاجية، إذ ابتدأ حججه بـــ(الواو) المعزز بـــ(أر)، في جملة (وذلك أنَّ رديئه عورة فاضحة) التي تدل على إنَّ رديء الشعر هو ذنب مفضوح للشاعر، إذ قيد هذا الذنب وانتشاره بجملة (إنْ لم تستر) فهي جملة فيها عامل حجاجي وهو (لم) ودوره تقييد الحجة وحصرها فقط على عدم التستر، فلو كان التستر موجوداً لما أصبحت عورة فضوحة،

أما الحجة الثانية التي ربطها بما قبلها بحرف الربط الواو، فتدل على إنَّ متوسط الشعر له فضيلة بينة واضحة لا تشكر، في (ومتوسطه فضيلة واضحة لا تشكر)؛ إذ استعمل في هذه الجملة عاملا حجاجيا، هو(لا)، فكان دوره حصر الحجة وتقيدها على عدم الشكر، أما الحجة لثالثة التي ربطها مع ما قبلها من الحجج، بالرابط الواو أيضاً في (والجيّد منه، لا ينال إلا باستغراق الأوقات فيه، وأهمال المهمات من أجله)، فتعني إن جيد الشعر لايمكن تحصيله إلا بثمن، وهو الوقت وترك الأعمال المهمة، فكانت هذه الحجة مؤلفة من روابط حجاجية، وهي تكر ار الواو، وعامل حجاجي، هو (إلا) الذي كان له دور مهم، في تقييد دلالة الحجة وحصرها، في عدم امكانية الحصول على الجيد من الشعر فقط، بعد أن يستغرق الوقت، وتهمل المهمات من الأعمال، فالوظيفة الحجاجية في هذا النص واضحة بينة، استمرت على طول السياق موظفةً تقنيات حجاج، في تثبيت دورها الفاعل، وعلاقتها في إيصال المعلومات والآراء للمتلقي، حسب ما يريد المؤلف.

ومن الأمثلة على الوظيفة الحجاجية ما قاله ابن السراج الشنتريني، في جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب عند تحليله لشعر ابن هاني الأندلسي في: **((وأشبه مواضعه الوعيد والتهديد ، دون النسيب والتغز ل، وإنما يحسنُ في التغزّل رقَّة ا لألفاظ وعذوبتها؛ لاسيِّما في حكاية أقوال النسا ء، غير أ ه أراد التنبيه ، على ما أبدته من القلق والذَّعر والاشار ، إلى ما كانت تلبُسهُ من الد ي، فأخبر عن شاهد الد ل: لا عن لسان المذ ل، لأنَّ هذا لا يشبه قول النس ء، لاسيِّما في حال الذعر والفزع . . .))**[8] .

فالمؤلف لا يعدُّ شعر ابن هاني الأندلسي الذي قاله في النسيب من أشعار التغزل والتشبيب، وإنَّما جعلها من أشعار التهديد والوعيد، وذلك لشدة ألفاظها وجرسها العالي، بعد ذلك وضَّح ما يمكن أن يصلح من ألفاظ، في مقام النسيب والغزل، وما لا يمكن استعماله، إذ وضع ذلك كلّه داخل نسق معين من الحجاج، وظيفته تحقيق ما يبتغي من دلالة واضحة، يتلقفها المُتلقِّي ويفهم محتواها، فتضافرت حججه وترابطت، حتى وصلت إلى نتيجة واحدة، فقد استعمل روابط لحجاج

المنفية؛ لتؤكِّد حالة النفي والنقض والإنكار، لما القاه الشاعر من نسيب مكروه، كما في (وإنما يحسن في التغزّل رقة الألفاظ وعذوبتها)، وهذا النفي جاء من أجل نقض وإنكار ما يتردد في ذهن المُتلقِّي من أفكار، فينبغي إرسال النفي مطابقا لما يلاحظه المتكلم من أ. اسيس بادرت إلى ذهن المُتلقِّي خطا، مما اقتضاه أن سعى لإزالة ذلك بأسلوب النفي[9] ، وهذا الأسلوب حدد النتيجة التي يسعى إليها المؤلف، وهي عذوبة ألفاظ التغزل ورقتها، مؤكدا ذلك بحجة يسبقها الرابط (لاسيما)، (لا سيما في حكاية أقوال النساء ؛ وا! تيان بهذا الرابط الحجاجِ ، لوظيفته ادالَّة علِ (أنَّ ما بعدها وما قبلها مشتركان فى أمر واحد، ولكن نصيب ما بعدها أكثر وأوفر من نصيب ما قبلها ، ولذا يقول النحاة: إن "لاسىَّ"، معناها: لا مثل... يريدون: أنَّ ما بعدها ليس مماثلا لما قبلها ، فى المقدار الذى يخصه من ا مر المشترك بينهما؛ وإنما يزيد عليه فى ذلك المقدار؛ سواء أكان الأمر محمودًا، أم مذمومً)[10] ، إذ كان دور هذه الأداة حصر ألفاظ النسيب وتقييدها في أقوال النساء، لما تختص به من رقة وأنوثة، ثم ينتقل إلى نتيجة أخرى، قدَّم لها بجملة (غير أنَّه أراد التنبيه على ما أبدته من لقلق والذعر، والاشارة إلى ما كانت تلبسه من الحلي)، فجاءت هذه المقدمة لتبرير الألفاظ المستعملة في النسيب الدالَّة على الذعر والتهديد، موضحا حجته على تبرير استعمال هذه ألفاظ، في مثل هذه المواقف، بقوله (فأخبر عن شاهد الحال، لا عن لسان المقال)، إذ استعمل الر بط الحجاجي (الفاء)؛ للوصل بين الحجة والنتيجة، فلسان حالها يخبرنا بقلقها وذعرها، فضلا عن استعمال النفي (لا)، وهو من العوامل الحجاجية التي تقيد المعلومة بنفي، ما قد يتبادر إلى ذهن المُتلقِّي بعد استقباله، وسماعه بداية العبارة، ومن ثم انتقل إلى حجة أخرى، تدعم هذه النتيجة في (لأنّ هذا لايشبه قول النساء) الدالَّة على أنَّ هذا القول هو خارج أقوال النساء، فيتبادر إلى ذهن المُتلقِّي سؤال مفاده أين نجد هذه الأقوال؟ فيأتي الجواب من المؤلف بحجة مقيدة بالنفي بقوله (لاسيمِّا في حال الذعر والفزع)، فتلك الألفاظ لا تشبه أقوال النساء في حالة الذعر والفزع، ونلحظ من هذا النص استعمال المؤلف لتقنية الحجاج، بأسلوب النفي، حتى يتسنى للمتلقي حصر المعلومة، بالاتِّجاه الصحيح الذي رسمه المؤلف، فهذا الأسلوب يختزل كل الطرق الدلالية التي قد تفتح في ذهن المُتلقِّي؛ فيسلك طريقا واحدا، لا مفر منه ولا مهرب.

وكان أسلوب الوظيفة الحجاجية سمة لازمة لابن السراج في كتاباته النثرية، ونلحظ ذلك في كتابه (الكافي في علم القوافي)، بقوله: ((الروي المطلق فإنَّ حركته تسمى الإطلاق؛ لأنَّ بها أطلق وتسمى المجرى؛ لأنَّ الروي يجري بها إلى غاية، هي الوصل، واذ لافهما يسمَّى الإقواء، وهو عيب))[1] ، يحدِّد المؤلف نتيجته التي يبني عليها حجته، باستعمال إحدى أدوات التعليل الرابطة (لأن)، إذ يبدأ المتكلم حجته بها، وتستعمل لتبرير الفعل، كما تستعمل لتبرير عدما[2] ، فتسمِّية حركة الروي الإطلاق وهي نتيجة، تقابلها الحجة في (لأن بها أطلق)، ثم نتيجة أخرى، وهي تسمية حركة الروي بالمجرى، التي تقابلها حجة مبنية، على نفس النسق السابق للحجة الأولى، في (لأنَّ الروي يجري بها إلى غاية هي الوصل)، فكان دور الرابط تبرير التسمية في النتيجتين، الأولى الإطلاق، والأخرى المجرى.

وفي استعمال الرابط الحجاجي (لأن)، يبدأ المتكلم بذكر النتيجة، ثم الرابط ثم الحجة، في كلا الحجتين، كما في المخطط الاتي:

النتيجة ← الرابط ← الحجة

الاطلاق ← لأن ← بها أطلق

المجرى ← لأن ← الروي يجري بها

, مثل ذلك قول : ((**وحركة ما قبل ألف التأسيس تسمى رسا من الرس الذي هو الثبات؛ لأ ها ثابته على كل حال واحدة**))[3] ، تميز أسلوب ابن السراج بهذا النوع من الحجج التي تعتمد على نوع واحد من الروابط الحجاجية لتبرير المسميات وتعليلها التي يطلقها على مصطلحات علم العر وض والقافية، وتسمية حركة ما قبل الف التأسيس رسا، إذ علل ذلك بمقدمة وهي(من الرس وهو الثبات)، ثم لحق تلك المقدمة حجة لتبرير النتيجة في تسميته، مستعملا لفظ التعليل (لأن) الذي ربط النتيجة بالحجة، وعلل استعمالها في (لأنَّها ثابته على كل حال واحدة)، التي دلت ء ى ثبات الحركة، وعدم تغيرها في كل الأحوال، ولتوضيح ذلك نرسم المخطط الآتي:

مقدمة ← نتيجة ← رابط ← حجة

الرس ثبات ← تسمى رسا ← لأن ← ثابتة

ونجد مثل هذا الأسلوب في نص آخر لابن السراج في قوله بتسمية القافية: **((وسمّى هذه الحركة ا عدي؛ لانَّ حركة الوصل المذ د تخرجه عن الاعتدال ، وتفسد وز ه؛ لانَّ التعدي هو التجاوز في غير وا ب، وس ى الحرف الحادث عنها المتعدي. . .))**[4] .

نلحظ أن ابن السراج استمر في تعليل المصطلحات العروضية التي يطرحها في كتابه، مستعملا أداة الربط الحجاجي (لأن) التي تربط حججه بالنتيجة وتعليلها، إذ نرى في هذا النص تقديمه لنتيجة تسمية الحركة بالتعدي، ومن ثم لحقها بحجه أولى، ربطها بـــ(لأن)، إذ دلَّت على تبرير عدم استعمال حركة مغايرة، وهي حركة الوصل المقيد التي تخرج القافية عن الاعتدال، وتفسد وزنها، ثم تبعها بحجة أخرى، ترتبط بالحجة التي قبلها، وبالنتيجة بالرابط (لأن) أيضًا، إذ دلت عل تبرير فعل التجوز والتعدِّي للقافية.

ونجد الوظيفة الحجاجية أيضًا في كتاب (كنز الكتاب) للبونسي (د 51ه)، من ذلك قوله: **((فإن احتجَّ أحدٌ علينا بقول الله تبارك وتعالى و الشعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُ))**[5] ، **وبقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه ، خير له من أن يمتلئ شعر))**[6] ، **قلنا له: أما الآية، فإنما أنزلها سبحانه في شعراء المشركين الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدليل على ذ ك، أنَّ الله تعالى قد استثنى المؤمنين منه م، فقال في الآية ا خرى (إلا الذين منوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثير))**[7] ، . . . ، **أما قول النبي عليه السلام: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا) الحد ث، . . . ولكن وجهه عندي أن يمتلئ قلبه حتى يغلب عليه فيشغله عن القر ن، وعن ذكر الله ، فيكون الغالب عليه من أيِّ الشعر ك ن . . .))**[8] ، وظَّف المؤلف مجموعة من الألفاظ الدالَّة، على أنَّ سياق النص حجاجي، إذ نلحظ في بداية النص عبارة (فإن احتجَّ أحدٌ علينا) الدالَّة على أنَّ المؤلف في مقام الرد على حجة مخالفة لما يعتقد، فجاء بهذه

المقدمة مستعما حرف الفاء المتصل بـــ(إن)؛ لدوره الفاعل في ترتيب عناصر النص، وربط بعضها مع البعض الآخر، ومؤكدا بدلالة (إن) مقدرته على الإجابة عن احتجاج الآخرين، وهذه المقدمة المسنودة بالآية القرآنية الكريمة (والشعراء يتَّبِعُهم الغاوون)، وقول الرسول صلى اله عليه وآله (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا)، ودلالتهما الظاهرية على تحريم قول الشعر، التي اتخذها بعض المتفقهين حجة مطلقة لمحاربة الشعر وتحريمه، فكان دور المؤلف الرد على من اعتقد ذلك، بأسلوب حجاجي، يفنِّد ما ذهبوا إليه من التحريم المطلق، ويتخذ استراتيجية ناجحة في عرض حججه مؤدية إلى نتيجة واحدة، وهي (عدم تحريم جميع الشعر)، إذ يجعلها تسير باتِّجاهين، الأول تفنيد معتقدهم بتفسير الآية القرآنية، وتفسيرها بشكل كامل دون تقطيع، حتى نحصل على صورة كاملة وواضحة لدلالتها، فابتدأ المؤلف كلامه بعبارة (أما الآية)، وجعلها كمقدمة تمكن المُ لقِّي من معرفة اتِّجاه الحجة التي يريد المؤلف استعمالها، ثم بدأ كلامه برابط حجاجي، هو (فإنما) الذي يتألف من(الفاء وإن وما)، وكلها روابط حجاجية، وظيفتها تقوية الحجة التي تأتي بعدها، وربطها بالنتيجة، وهي قول المؤلف: (أنزلها سبحانه في شعراء المشركين الذين دَ نوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم) الذي يدل على أنَّ هذه الآية لا تخص الشعراء كلهم، وإنما فقط المشركين الذين قالوا شعرا في هجاء الرسول صلى الله عليه وآله، ومن ثم يستدل على قوله هذا بحجة، مستعملا رابطا حجاجيا لفظيا، هو (والدليل على ذلك)، ثم رابطا آخرا، هو (أنَّ)، وكان دورهما تقوية الحجة وتوكيدها، والدليل الذي يؤدِّي إلى النتيجة التي هي (أنَّ الله تعالى قد استثنى المؤمنين منهم)، ويشير بذلك إلى دلالة الآية التي تستثني المؤمنين من الشعراء، في قوله تعالى ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا** ، ومن ثم ينتقل إلى تعليل حديث رسول الله، وتوجيهه صلى الله عليه وآله، بحسب ما يؤمن به من توجه في تفسير الآية القرآنية السابقة، إذ يستعمل حجته التي تصل إلى نتيجة سابقة، وهي عدم تحريم جميع الشعر، فيستعمل أداة الربط (لكن)، مع (أ)، لربط الحجة وتؤكيدها وتقويتها، في عبارة (أن يمتلئ قلبه، حتى يغلب عليه، فيشغله عن القرآن) الدالَّة على أنَّ الامتلاء يشمل جميع القلب والجوارح، ولا

يدع مجالا لذكر الله تعالى، فهذا الذي قصد به الحديث، ولا يشمل من استعمل الشعر بحدود مقبولة، دون المبالغة والزيادة التي تلهي عن ذكر الله، وتفتح أبوابًا إلى المعصية.

إنَّ هذا التوظيف للحِجَاج في تفسير الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية وتعليلها، لا يدع مجالا للشك في مقدرة الوظيفة الحجاجية على إظهار الاعتقاد الديني والفقهي، بصورة واضحة وسلسة، عبر الأدلة القرآنية و لتفسيرية، فضلًا عن الأحاديث النبوية، والتي تستعرض، بلغة موضوعية مفهومة للمتلقي، وقادرة على إيصال الأفكار والمعلومات، بكل يسر وسهولة.

اعتمد البونسي في كتابه (كنز الكتاب)على الوظيفة الحجاجية، في بعض نثره التأليفي[9] ؛ ليوظفها في تفسير المعاني ا ي يذهب إليها وتعليلها، وكذلك المصطلحات البلاغية والقضايا الأدبية التي أبدى فيها آراءه النقدية، محاولا تثبيت تلك الآراء، وإظهار مصداقيتها، ومدى نجاعتها في الميدان الأدبي، مستعملا تقنية الحجاج التي لها دورٌ كبيرٌ في إيصال جهود المؤلف إلى المُتلقِّي، بصورة و ضحة وبلغة موضوعية.

الخاتمة:

يكشف لنا ماسبق إنَّ حضور الوظيفة الحجاجية كان بيِّنًا في لغة الكتَّاب النقَّاد الذين كان اتِّجاههم الكتابي في النقد الأدبي من بلاغةٍ وعروضٍ؛ لأنَّها تحتاج إلى ذكر الآراء وتعليلها، ونقض آراء النقَّاد الآخرين، وتعا ل هذا النقض، والدفاع عن أفكارهم التي يطرحونها في نثرهم التأليفي، اما لغتهم في الحجاج كانت على الأغلب لغة موضوعية علمية، تعتمد على المصطلحات الأدبية، والحجج التي تستعمل بطريقة منطقية في أغلب الأحيان؛ لتؤثر في المُتلقِّين إيجابيًا أو سلبيًا.

الهوامش :

() ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، الدكتورة سامية الدريدي،عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ، 2 2011م. 99 100.

() ينظر: م ، ن 26 27.

() ينظر: م ،ن 23.

() ينظر: اللغة والحجاج، الدكتور أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ، 1 1426ه - 2006م. 16

() ينظر: الحجاج في الشعر العربي 90.

() ينظر: اللغة والحجاج 36.

() ينظر: م ، ن 55.

() استراتيجيات الخطاب 472.

() ينظر : اللغة والحجاج 27.

[0] () ينظر: اللغة والحجاج 133.

[1] () إحكام صنعة الكلام 50.

[2] () إحكام صنعة الكلام 98.

[3] () إحكاتم صنعة الكلام 105.

[4] () ينظر : المقتضب، لابي العباس محمد بن يزيد المبّرد(د 285ه) ، تحقيق:محمد عبد الخالق عضيمة ، لجنة إحياء التراث الاسلامي ، مصر – القاهرة ، ، 3 1415ه 1994م. ، 148.

[5] () ينظر: اللغة والحجاج 10.

[6] () ينظر: إحكام صنعة الكلام 46 47 51 53 55 57 58 60 62 63 65 66 67 71 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96، 97 98 99 100 . . .ألخ

[7] () جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب، لأبي محمد بن عبد الملك الشنتريني الأندلسي ابن السراج (ت 549ه)، تحقيق: الدكتور محمد حسن قزقزان، الهيأة العامة السورية للكتاب، إحياء التراث العربي، دمشق – سوريا 2008م. ، 318.

[8] () جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب ، 339. ومن أمثلة استعمال الشنتريني للوظيفة الحجاجية ينظر: جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب ، 342 ، 343 ، 349 ، 350 ، 351 ، 352 ، 359 ، 361 ، 362.

[9] () ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه 246.

[0] () النحو الوافي ، عباس حسن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ـ مصر، ، 3 ، دت. ، 401.

[1] () كتاب الكافي في علم القوافي، للشيخ الفقيه ابي بكر محمد بن عبد الملك بن السراج الشَّنتريني، تحقيق: د. علاء محمد رأفت، دار الطلائع للنشر والتوزيع ، القاهرة ـ مصر، دط 2003م. 41.

[2] () ينظر: استراتيجيات الخطاب 478.

[3] () كتاب الكافي في علم القوافي 42.

([24]) م ، ن 45.

([25]) سورة الشعراء: آية 224.

([26])صحيح مسلم، للامام أبي الحسين مسلم بن الحجَّاج النيسابوري، بتحقيق: أبو الفضل الدَّمياطي، دار البيان العربي، القاهرة ـ مصر، دط 2006م 1101.

([27]) الشعراء: آية 227.

([28]) كنز الكتاب ومنتخب الآداب، البونسي ، 143.

([29]) ومن الأمثلة على الوظيفة الحجاجية في كتاب كنز الكتاب ينظر ، 147 ، 154 ، 156 ، 163 /1 ، 165 ، 194 ، 202 ، 222 ، 292 ، 590 ، 604 ، 623 ، 672 ، 676 ، 677 / 2 ، 693 ، 771 ، 782 ، 836 2.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم :

1. إحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي (ت550ه), تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية, عالم الكتب, بيروت, ط2 ، 1985م.
2. إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ـ لبنان، ، 1 2004م
3. جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب، لأبي محمد بن عبد الملك الشنتريني الأندلسي ابن السراج (ت 549ه)، تحقيق: الدكتور محمد حسن قزقزان، الهيأة العامة السورية للكتاب، إحياء التراث العربي، دمشق ـ سوريا 2008م.
4. الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، الدكتورة سامية الدريدي،عالم الكتب الحديث، إربد ـ الأردن، ، 2 2011م.
5. في النحو العربي نقدٌ وتوجيه، الدكتور مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان، ط2 ، 1406ه – 1986م
6. كنز الكتاب ومنتخب الآداب، لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أحمد بن علي الفهري الشريشي المعروف بالبونسي (ت651ه)، تحقيق : حياة قارة، المجمع الثقافي، ابو ظبي ـ الامارات، دط، 1425ه - 2004م
7. اللغة والحجاج، الدكتور أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ، 1 1426ه - 2006م.

8. المقتضب، لابي العباس محمد بن يزيد المبّرد(ت285ه) ، تحقيق:محمد عبد الخالق عضيمة ، لجنة إحياء التراث الاسلامي ، مصر – القاهرة ، ط3، 1415ه -1994م.
9. النحو الوافي ، عباس حسن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ـ مصر، ط3 ، دت